

صورة إيالة الجزائر في كتاب رحلة لاكوندامين *La Condamine* إلى الجزائر (1731)

The image of the Regency of Algiers in La Condamine's journey(1731)

د. بوطبة لخضر، جامعة سطيف 02 (الجزائر)

boutebalakhdar@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2025 /06/05

تاريخ القبول: 2025 /03/22

تاريخ الاستلام: 2024 /12/05

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى تحليل نقدي لملاحظات رحلة عالم فلك فرنسي زار الجزائر في عام 1731، وذلك في سياق النظرة الاستشراقية السائدة في أوروبا خلال القرن الثامن عشر. من خلال تحليل نظرة هذا العالم الفلكي للجزائر، سنقوم بتقييم مدى تأثيرها بالتصورات المسبقة عن العالم الإسلامي، وكذلك بالإشارة إلى دور الخلفية العلمية للمؤلف في تشكيل رؤيته. سيتناول المقال جوانب متعددة، من بينها سيرة العالم الفلكي ومؤلفه، وصفه لمدينة الجزائر، بلاط الداي، لقاءه بالرحالة الأنجليزي طوماس شو، وبعض الجوانب من الحياة الاجتماعية في هذه المدينة، وذلك بهدف الكشف عن الآليات التي من خلالها تم بناء وتعميق التمثيلات الاستشراقية عن الجزائر.

الكلمات المفتاحية: الجزائر، الفلكي، الداي، الاحتفال، الديوان.

*- المؤلف المرسل

Abstract:

This article aims to conduct a critical analysis of the observations of a French astronomer who visited Algeria in 1731, within the context of the prevailing Orientalism in 18th-century Europe. By examining this astronomer's perspective on Algeria, we will assess the extent to which it is influenced by pre-conceived notions about the Islamic world, while also highlighting the role of the author's scientific background in shaping his view. The article will address various aspects, including the astronomer's biography and his work, his description of the city of Algiers, the court of the Dey, his encounter with the English traveler Thomas Shaw, as well as certain aspects of social life in the city, in order to reveal the mechanisms through which Orientalist representations of Algeria were constructed and reinforced.

Keywords: Algiers; Astronomer; Dey; Celebration ; Diwan

1-المقدمة:

يهدف هذا البحث إلى تحليل رحلة العالم الفلكي الفرنسي لاكوندامين إلى الجزائر في جوان 1731، وذلك بالاعتماد على ملاحظاته وسجلاته التي نشرها الكاتب الفرنسي مارسال إمري في المجلة الإفريقية. يركز التحليل على استكشاف جوانب مختلفة من الحياة الجزائرية في تلك الفترة، بدءاً من وصف للبيئة العمرانية والاجتماعية، وصولاً إلى وصف للأحداث والاحتفالات التي شهدتها العالم الفرنسي.

يهتم هذا البحث بشكل خاص بتقييم نظرة العالم الفلكي إلى إيالة الجزائر، ومقارنتها بالنظرة النمطية التي كانت سائدة لدى المستشرقين الأوروبيين في ذلك الوقت. يسعى البحث إلى الإجابة عن السؤال التالي: هل تمكن العالم الفلكي، بفضل خلفيته العلمية، من تجاوز هذه النظرة النمطية وتقديم وصف موضوعي للواقع الجزائري؟

ويتضمن البحث عدة محاور رئيسية، منها: التعريف بالمؤلف والكتاب، وصف للمنازل والفنانات وإقامة الداوي، وصفه لاستقبال الداوي للقنصل الفرنسي والوفد المرافق

له، لقاء العالم الفلكي بالرحالة الإنجليزي طوماس شو، وصفه للاحتفال بعيد الفطر وعرض المصارعة، وصف لداي الجزائر واللغة الفرانكا، وأخيراً وصف للجزائر كمدينة مكتظة. في الختام، يتم تقديم مجموعة من النتائج التي تستخلص من تحليل هذه الملاحظات والسجلات.

2-التعريف بالمؤلف:

لقد قال المؤلف الفرنسي مارسال إمري أن لا كوندامين كان في عصر التنوير، واحداً من أذكي العلماء، وكانت سمعته كبيرة. بدافع من فضول شديد، ادعى أنه يدرس جميع العلوم الرياضية والفيزياء والتاريخ الطبيعي والطب، وكان قلمه السلس ماهراً في عرضها على طبقة النبلاء في عصره¹.

لم يكن أحد أقدر منه على إثارة إعجاب الأكاديمية الفرنسية للعلوم، التي انضم إليها كيميائياً في سن مبكرة. صحيح أنه لم يقم باكتشافات عظيمة، فمعارفه كانت تُشبه معارف الموسوعي، الذي لا يأخذ وقتاً كافياً لتعميق مجال اهتمامه المتغير باستمرار². ولكن لا يمكن إنكار شجاعته، ومهارته في مجال الاستكشاف.

لقد برهن على شجاعته بشكل واضح عندما التحق بالفروسية في سن السابعة عشرة وشارك في حصار روزاس Rosas³. لكنه اعتقاداً منه بأن عهد لويس الخامس عشر⁴

¹La Condamine: Le Voyage de La Condamine à Alger (1731), publié par Marcel Émerit, Revue Africaine, n°98, 1954, Alger, p354.

² إن المقال الذي كتبه ليون سيغنيه عن شارل ماري دو لا كوندامين في الموسوعة الكبرى لا يتسم باللين في التعامل معه.

³ استمر حصار روزاس Rosas من 28 نوفمبر 1794 إلى 4 فبراير 1795، حيث تخلت الحامية الإسبانية عن الميناء واستولت عليه قوات الجمهورية الفرنسية الأولى.

⁴ الملك لويس الخامس عشر حكم فرنسا وهو في السن الخامسة من عمره، وذلك من 1715 إلى 1774، أصبح ملكاً لفرنسا وناقاراً بعد وفاة جده الأكبر لويس الـ14 فأصبح وريثه.

سيكون سلمياً ولن يتيح له تحقيق مسيرة مهنية لامعة في المجال العسكري، استقال واتجه إلى دراسة العلوم. وقد مكنته ثروته الطائلة (كان والده جامعاً عامّاً للضرائب) من تجهيز نفسه بشكل جيد. ومع ذلك غالباً ما كانت روح المغامرة تطغى عليه. ففي عام 1731، عندما كُلف دوغي تروان Duguay-Trowin بقيادة أسطول في البحر الأبيض المتوسط لرفع شأن فرنسا، وحلّ العديد من المشاكل البحرية، توسل لا كوندامين إلى هذا الأميرال ليأخذه معه، ويعهد إليه بالجزء الدبلوماسي من مهمته. وهكذا زار هذا العالم البالغ من العمر ثلاثين عاماً الجزائر وتونس وطرابلس والقدس وتركيا وآسيا الصغرى وقبرص والقسطنطينية، وبعد العديد من المغامرات التي توجت بالنجاح بفضل جرأته، عاد إلى فرنسا حاملاً معه معلومات كثيرة عن الأرصاد الجوية، والمنتجات الطبيعية والمعالج والأعراف في البلدان التي زارها.

ولقد كان ينوي بلا شك نشر سرد رحلته، عندما استحوذ عليه مشروع جديد كان من شأنه أن يمنحه شهرة أكبر. ففي باريس كانت الأكاديمية الفرنسية للعلوم تعمل على إرسال علماء إلى البيرو لقياس طول درجة واحدة من قوس الدائرة العظمى عند خط الاستواء. وكان علماء رياضيات بارزون، مثل بوغي Bouguer وغودان Godin، قد التحقوا بالفعل بالبعثة، وقد نظروا بعين الريبة إلى انضمام شاب طموح إليهم. إلا أن لا كوندامين تمكن من التغلب على غيرتهم. ففي عام 1735، عبر مع رفاقه برزخ بنما وخط الاستواء، وجرؤ على المغامرة بمفرده في جبال الأنديز، ووصل إلى كويلو¹ Quilo، وعمل لمدة ثلاث سنوات على قياس قوس الدائرة العظمى، وسنة أخرى على الملاحظات الفلكية، ولم يتردد في إنفاق مائة ألف ليرة من ثروته الخاصة لإنجاز المهمة، وتحدى سوء معاملة زملائه، والعقبات التي وضعها الحاكم الإسباني، وعداء السكان الأصليين.

لُقّب بـ"المحبوب" لحسن معاملته رعيته، لكن سياسياً وُجهت إليه انتقادات عدة، خصوصاً أن فرنسا كانت تعيش حالة ضعف خلال فترة حكمه، إضافة إلى تزامن اندلاع حرب السنوات السبع التي امتدت من عام 1756 إلى 1763 مع إنجلترا.

ويُعد الملك ما قبل الأخير في فرنسا، إذ بعد وفاته يوم 10 مايو 1774 ورث عنه الحكم حفيده لويس الـ16 الذي في عهده سقط النظام الملكي بسبب اندلاع الثورة الفرنسية ونجاحها عام 1789.

¹ هي بلدة أمريكية تقع في ولاية أركنساس.

في كثير من الأحيان كانت البعثة تُعرب عن شكرها مرارًا وتكرارًا لبراعة الشاب الأكاديمي الدبلوماسي. وعندما حان وقت العودة إلى فرنسا، لم يسلك لا كوندامين الطريق الذي سلكه بوغي المتسرع، بل اختار الطريق الأطول والأكثر خطورة عبر غابة الأمازون وقويانا البرية. وفي عام 1744 وبعد عامين من الاستكشاف، عاد المسافر المدهش إلى باريس محملاً بثروة من الذكريات.

وقام برحلات أخرى لاحقًا، كانت أقل خطورة، وكتب العديد من الكتيبات حول مسائل علمية مختلفة. ولم تنجح حملته المؤيدة لتطعيم الجدري، الذي كان يُمارس في بلدان أخرى، في التغلب على مخاوف الأطباء. وعوض لا كوندامين ذلك بكتابة الشعر.

والرحلة إلى الجزائر التي أعاد مراسل إمري نشر سردها هنا، هي أولى مظاهر مُيوله نحو الاستكشاف والدبلوماسية وجمع الملاحظات المباشرة. ولم يكن لا كوندامين مستعدًا لفهم المجتمع الذي تعامل معه، لكن روح الملاحظة لديه مكنته من الاستفادة القصوى من الأيام القليلة التي قضاها في العاصمة البربريسكية (الجزائر).¹

3-التعريف بالكتاب:

كان من المفترض أن تجذب إقامة مستكشف عظيم مثل لا كوندامين في الجزائر انتباه المؤرخين الذين اهتموا بالفترة الغامضة من حكم الدايات. وقد بقيت رواية رحلته إلى المشرق، المحفوظة في المكتبة الوطنية² مخطوطة. وقد أدرك الفيكونت بيغوين Le vicomte Begouën أهميتها في نهاية القرن الماضي، وكان له الفضل في نشر الجزء المتعلق بتونس في المجلة التونسية³. أما الجزء المتعلق بالجزائر، فلا يوجد منه سوى جزء مطبوع في "العالم الخلاب" لعام 1850، ولن يجد القارئ أي صعوبة في اكتشافه، بأحرف صغيرة، في ملحق فصل مخصص للولايات الطرابلسية⁴.

¹ La Condamine : op, cit, p356.

² Manuscrit français, n° 11113

³ Revue Tunisienne:Tome 5 (1898), p 72 à 94.

⁴ Hoefer, Ferdinand : l'Univers pittoresque, , Histoire de tous les peuples, Afrique Etats Tripolitains, 1835, **pp112-115.**

من السهل فهم سبب هذا النسيان. فقد روى أحد رفاق لا كوندامين، وهو السيد طولو Tollot¹ رحلته بالفعل. وربما اعتقد البعض أن كتاب هذا السكرتير يحتوي على جوهر الملاحظات التي يمكن أن تقوم بها البعثة.

ومع ذلك، فإن طولو ليس سوى متعاون متواضع، لم يتمكن دائماً من متابعة سيده عندما حصل الأخير على إذن بالنزول إلى الشاطئ. إن معلوماته العامة عن إيالة الجزائر، المتفرقة إلى حد ما، هي من الدرجة الثانية، وتأتي من ملاحظات قدمها التجار الفرنسيون. ولا يمتلك طولو الكثير من روح الملاحظة، ويقتصر عرض ما رآه بعينه على حوادث تافهة. وعلى الرغم من الإهمال، فإن رواية الفارس لا كوندامين أكثر متعة في القراءة وأكثر دقة.²

4- الوصول إلى ميناء مدينة الجزائر:

وصل لاكوندامين إلى ميناء مدينة الجزائر يوم الاثنين 11 جوان عام 1731، حيث أخبرنا بعمق الميناء وكذا تقليد تحية السفن القادمة إلى هذا الميناء حيث يقول: "رست سفينتنا عند ظهر اليوم في ميناء الجزائر على عمق ثمانية وعشرين قامة. رحبت بنا المدينة بإطلاق إحدى وعشرين طلقة مدفعية، فرد قائد سفينتنا بعشرين طلقة فقط، وقيل إن هذا خطأ ارتكبه المدفعي، وأن الأمر كان بالرد طلقة بطلقة. وبعد تناول العشاء، صعدتُ على متن سفينة القائد برفقة الضابط المسؤول، وطلبت النزول إلى الشاطئ غداً مع أدواتي. وقد عرض علي القنصل الفرنسي الجديد في الجزائر، الذي جننا به على متن سفينة تولوز، استعمال القنصلية التي تحتوي على شرفة مناسبة للملاحظات الفلكية³. وفي المساء، قمت

¹ Jean-Baptiste Tollot: Nouveau voyage fait au Levant, 1731-1732. Alger, Tunis, Tripoly de Barbarie, Alexandrie en Égypte, Paris, 1742.

² La Condamine: op, cit, p356.

³ يقول طولو (في مؤلفه، الصفحة 11)، أن المدينة قد استقبلت الوفد بـ 31 طلقة مدفعية أطلقت على التوالي.

كانت القنصلية تقع في حي البحرية بالجزائر العاصمة، وهو الحي الذي هُدم حالياً (شارع القناصل).

بقياس انحراف الإبرة المغناطيسية، ووجدت أنها تنحرف عن الشمال بحوالي إحدى عشرة درجة وخمس عشرة دقيقة باتجاه الغرب عند غروب الشمس.¹

5-وصف بلاط الداوي:²

بعد النزول من على متن السفينة يعرض لنا المؤلف كيف تم استقباله من قبل الداوي ويصف هذا الاستقبال في قوله: "يوم الثلاثاء 12 جوان، توجهنا في حوالي الساعة السادسة صباحًا، أنا وعشرة أو اثني عشر ضابطًا وبعض حراس البحرية من سفينتنا، إلى سفينة القائد. وبما أن البحر كان مضطربًا، طلبوا منا عدم الاقتراب من الشاطئ والتوجه مباشرة إلى الجزائر. وقد فعلت السفن الأخرى الشيء نفسه، فوجدنا أنفسنا في حوالي أربعين قاربًا مصاحبة لقنصلنا الجديد والسيد دو بوكار de Beaucaire، قائد الفرقة التي أرسلها القائد لتقديم القنصل والتفاوض مع الداوي"³.

"استقبلنا الداوي في رواق مقوس في نهاية ساحة مرصوفة بالحجارة الخشنة، لا يسبقها سوى نوع من الممر الضيق بطول ثلاث أو أربع أذرع، وعرض ذراعين، وفي نهايته يوجد الحرس في مكان يشبه مكان وقوف الحراس عند باب القصر. وعند الوصول إلى هؤلاء

¹ La Condamine: op, cit, p357.

² الداوي الذي كان يحكم في هذا الوقت هو كرد عبيدي باشا (1724-1732). يقول الشيخ عبد الرحمان الجيلالي أنه كان يُلقب بالكرد والأعور، وذكر أنه من المحتمل أن يكون من أكراد العراق، تقلب في المناصب العسكرية حتى وُلِّي دايًا على رأس الإيالة. وفي عهده تمكن الإسبان من استرجاع وهران في جويلية 1732، فاغتم الداوي وحزن حزنا شديدا وغلق على نفسه، لكنه سرعان ما استعاد قوته ونشاطه وأرسل الجيش بقيادة ابنه محمد لمقاتلة العدو واسترجاع وهران، لكن موته المفاجئ (قيل أنه مات مسموما وهو ما أشار إليه لوجي دوطاسي في قوله أن نهايته كانت مأساوية) أدى موته إلى أن دب الفشل إلى هذا الجيش فخسر المعركة. وبقيت وهران تحت حكم الإسبان إلى أن افتكها منهم الداوي محمد بن عثمان سنة 1791. أنظر عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، ط7، د م ج ، الجزائر، 1994، ص ص223-224.

³ لا يذكر لا كوندامين طولو، ولا يذكر طولو لا كوندامين. علاوة على ذلك، يقتصر وصف طولو على المقابلة الثانية مع الداوي.

الحرس، نلتفت يسارًا للدخول إلى ساحة أطول منها عرضًا، وهي الساحة التي ذكرتها آنفًا. وفي نهاية هذه الساحة، على اليمين يوجد رواق مقوس بعرض الساحة، أي حوالي ستة أو سبعة أذرع، ويسنده ثلاثة صفوف من الأعمدة، بالإضافة إلى الصف الذي يدعم الرواق في الساحة التي يجلس فيها الداوي على منصة على يسار المدخل، واضعًا ساقيه بشكل متقاطع. وبعد وصف المكان ينتقل المؤلف إلى تقديم وصفًا للداوي حيث يقول: "كان رجلًا بدينًا عجوزًا أعورًا، وقد ترك الجذري¹ آثاره الواضحة على وجهه². اقترب السيد دو بوكار والقنصل، وتبعهما الوفد، وكان الأول هو من قدم القنصل وقام بتقديم تحية لم أفهمها. ترجم المترجم الكلام إلى الداوي وأعاد الجواب بالفرنسية. قدم السيد دو بوكار بعض ضباط الفرقة والشباب. وقد قدم لهم الداوي، وكذلك للقنصل ولأقرب الحاضرين، حبة مشمش³ من طبق فضي كان يحمله بيده الأخرى، ثم مرر الطبق لتوزيع المشمش على الجميع⁴."

¹ هو داء الجذري هو عدوى فيروسية خطيرة ومميتة في أغلب الأحوال. وهو ينتقل بالعدوى، أي ينتقل من شخص لآخر، ويمكن أن يسبب تندبًا دائمًا. ويسبب تشوهًا في بعض الأحيان. كان الجذري يصيب البشر منذ آلاف السنين لكنه بدأ يختفي في جميع أنحاء العالم منذ عام 1980 بفضل لقاحات الجذري. ومنذ ذلك الحين لم يُعد منتشرًا بصورة طبيعية في أنحاء العالم. فقد أُبلغ عن آخر إصابة طبيعية بالجذري في عام 1977.

<https://www.mayoclinic.org/ar/diseases-conditions/>

² إن كُرْد عَبدي الداوي، الذي حكم بين عامي 1724 و1733، كان حسن الخلق وذو ذكاء، ولكنه كان يعاني من نوبات غضب يُنسب سببها إلى عاداته في تدخين الأفيون. كان قصر الداوي الجنيينة يقع عند مدخل شارع باب الواد الحالي، وقد هُدم بعد عام 1830 لإفساح المجال لبناء عمارات حديثة.

³ كان سهل المتيجة يزود مدينة الجزائر بكميات وفيرة من الخضروات والفواكه اللذيذة، لطالما أشاد بهما كل الملاحظين والرحالين الذين زاروا الجزائر خلال هذه الحقبة بدءًا بالراهب الإسباني هايدو. لمزيد من التفاصيل راجع، فراي ديشو دو هايدو: طبوغرافيا وتاريخ الجزائر العام، ترجمة وتقديم الدكتور لخضر بوطة، دار الباحث للنشر والتوزيع، برج بوعرييج، الجزائر، 2022.

⁴ La Condamine: op, cit, p358.

6- وصف المنازل والفناءات:

وبصفة المؤلف عالم فلكي فقد كان لا يفوت أية فرصة لتسجيل ملاحظاته بدقة، فبعد الوصف الذي قدمه لنا عن استقبال الداوي ينتقل إلى وصف المنازل والفناءات في مدينة الجزائر حيث يقول: "كانت الغرفة التي يجلس فيها الداوي مُزينة، مثل معظم بيوت البلاد، بقطع من البلاط الإيطالي الملون، والتي تشكل أشكالاً وفسيفساء مختلفة. وكان هناك أيضاً منبر مغطى بنفس البلاط يحيط بالغرفة على شكل مقعد مع درجة صغيرة ارتفاعها حوالي قدم، وكانت الأرض مغطاة بحصير من القصب، وسجاد تركي. وكانت الأثاثات الأخرى تتكون من ثلاث أو أربع مرايا رديئة، أكبرها لا يتجاوز عرضها قدمين ونصف، وبارومتر بسيط جداً، وساعة أو ساعتين إنجليزيّتين، مثبتتان في علب خشبية بسيطة بدون زخرفة. ولم يكن هناك أحد يجلس على نفس مستوى الداوي الذي كان جالساً على المنصة التي ذكرتها. وكان البلاط ومعظم ضباطه يَقْفُونَ على بعد مسافة. ولم أرَ أحداً منهم بينه وبين الفرنسيين، ولا حتى قريباً منه، باستثناء عبد كان يطرد الذباب بمروحة من القش."

يواصل المؤلف وصفه حيث يقول: "وعلى يمين الداوي كانت هناك طاولة طويلة تشغل العرض الكامل للغرفة، وكانت مغطاة بالكتب الكبيرة والأوراق، وكانت بمثابة مكتب لأربعة كُتّاب كانوا حاضرين، وكان كل منهم يجلس في مكانه، وقيل لنا إنهم الوزراء الأربعة الرئيسيون أو أمناء الدولة الذين يكتبون الرسائل بأنفسهم¹. وبعد انتهاء التحية من الجانبين، خرجنا بنفس الترتيب الذي دخلنا به. عُدنا إلى القنصل وتناولنا العشاء في حوالي أربعين شخصاً،

¹ هم الخوجات أو الخوجة باشيات أو الكتاب الكبار، هم الأمناء العامون للدولة. يوجد منهم أربعة: أقدمهم يحمل سجلات كشوف المرتبات والنفقات العادية وغير العادية. والثاني يمكس سجل الجمارك. والثالث تلك الخاصة بإيرادات الدولة. والرابع يمكس سجلات خاصة بالشؤون الخارجية والاستثنائية. وهم دائماً جالسين في نفس الصف أمام طاولة أو المكتب، على الجانب الأيمن من الداوي، خلال كل الوقت الذي يقضيه في مقعده، للإجابة أو التحقق أو الكتابة أو تسجيل أي شيء يخصهم. أنظر، لوجي دوطاسي: تاريخ مملكة الجزائر، ترجمة وتقديم الدكتور لخضر بوطبة، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2024، ص 179.

بالإضافة إلى مستشار القنصل وبعض التجار الفرنسيين الذين كانوا يجلسون على مائدة
ثالثة.¹

7- وصف إقامة الداى

حظيت إقامة الداى منذ بداية توافد العلماء والرحالة الأوروبيين إلى إيالة الجزائر
بقدر كبير من اهتماماتهم، فما من زائر إلا ويقدم لنا وصفاً لمنزل الداى أو كما كانوا يسمونه
منزل الملك²، ولم يخرج مؤلفنا عن العادة فنجده يقدم لنا الوصف التالي حيث
يقول: "استقبلنا الداى في ممر في الطابق الثالث مدعوم بأعمدة خشبية ويطل على الفناء،
تشبه هذه الرواقات البارزة التي توجد في الحانات للاتصال بعدة غرف. وكان الداى متكئاً
على السور، جالساً على أريكة مرتفعة جداً، وقدمها عبارة عن أعمدة خشبية سميكة بدون
زخرفة، وكان جالساً بوضع تقليدي مع عباءة ملفوفة حول ساقه، وحذاءه أسفل الأريكة.
وكانت المرتبة مغطاة بقماش مطبوع بسيط، وكذلك الوسادتين. وكان هناك كرسي بذراعين
أمامه مخصص للسيد دو بوكار، وعلى الجانبين بعض الكراسي الخشبية التي جلس عليها
باقي الضباط الفرنسيون وأنا. وكان المترجمون أحدهما فرنسي أقام طويلاً في المشرق وجاء به
السيد دوفي من طولون، والآخر فرنسي مرتد³ منذ سن العاشرة، يقفان على يمين ويسار
الأريكة، وبجانبيهم بعض من خدم الداى، وخاصة العديد من الغلمان الذين هم من العبيد
المسيحيين الشباب من مختلف الجنسيات، تم أسرهم من السفن الإسبانية والجنوية
وغيرها التي كانت تُحارب الجزائر، وكانوا يسجدون عند خدمة الداى. اقتربوا منه عدة مرات
خلال الجلسة التي استمرت ساعتين، إما لتعبئة أنبوبة تبغها عندما تنتهي، أو لإزالة أو وضع
معطف قصير أو عباءة من الحرير المخطط والفرو، والتي كان يرتديها فوق ملابسه. لقد
بدأت الجلسة وغادرتها بعد حوالي ربع ساعة، حيث دعاني الوقت إلى المرصد، وعدت إليه

¹ La Condamine: op, cit, p359.

² أنظر على سبيل المثال، مذكرات شوفالييه دارفيو: المصدر السابق، ص 122.

³ الشائع في الكتابات الأوروبية اعتبار الشخص المسيحي الذي يعتنق الدين الإسلامي مرتداً، في حين يعتبر لدى المسلمين مهتدياً.

بعد ذلك، ووصلت في الوقت المناسب لتناول القهوة. وكانت المناقشة قد اشتدت حول العديد من النقاط التي طلبوا منها الرد.¹

"لقد كان الداى يُصر على استرداد 40,000 فرنك من البضائع التي أقرضها للتاجر الفرنسي، وبدا عازماً على عدم قبول أي عذر حتى يتم التعويض له عن خسارته. أخبر القنصل الداى أنه تخلى عن ذلك التاجر البائس لانتقامه، وأنه شطبه من قائمة الفرنسيين، لكن الداى الذي كان يريد استعادة أمواله لم يتأثر بهذا الرد². وقد تم إبلاغه بأن لدى هذا الرجل دائنين سابقين في فرنسا قاموا بحجز سفينته وبيع حمولتها التي كانت تحمل بضائع الداى، وأن هذه المعلومات كانت مجهولة، وأن الأموال تم توزيعها على الدائنين، وأن كل ما يمكن فعله هو كتابة خطاب إلى الوزير (الفرنسي) وإبلاغه بالحقيقة، وأنهم يأملون أن يأخذ الإمبراطور الفرنسي الأمر بعين الاعتبار، لكن لا يمكنهم تقديم أي وعد بذلك، وأن القنصل أخطأ كثيراً بإعطاء وعد آخر والالتزام بأكثر مما يدعي الداى.³

8-وصف استقبال الداى للقنصل الفرنسي والوفد المرافق له:

يقدم لنا لاكوندامين وصفا للاستقبال الثاني الذي حظي به القنصل الفرنسي والوفد المرافق له حيث يقول: "في يوم الخميس 11 جوان، استيقظت لرؤية تركي يدخل ويحرك يديه ويخبر القنصل أن الداى يَطْلُبُه. عرضت عليه مرافقته. وبعد لحظة قيل لنا إنه يجب على الجميع الذهاب. استقبلنا في رواق الفناء كما في المقابلة الأولى، ولاحظت وجود

¹ La Condamine: op, cit, p361.

² في بعض الأحيان كانت تصرفات بعض الأشخاص الفرنسيين الطائشة لا سيما من التجار وممثلي الشركة الملكية الفرنسية، يثيرون المشاكل والتي كان ينجر عنها التوتر في العلاقات بين الجزائر وفرنسا مثلما فعل وكيل الباستيون في القالة والذي ذكر القنصل الفرنسي الفارس دارفيو في مذكراته. لمزيد من المعلومات أنظر، مذكرات شوفالي دارفيو، ترجمة وتقديم الدكتور لخضر بوطبة، دار الباحث للنشر والتوزيع، برج بوعرييج، الجزائر، 2023، ص 42 وما يليها.

³ La Condamine: op, cit, p362.

حوض حجري لتشرب منه الحمام عند سفح أحد الأعمدة التي تدعم الرواق، ولديهم أيضاً نوع من الأقفاص لتناول الطعام.¹

"كانت القطط والكلاب تتجول بحرية في القصر وحضرت الديوان دون أي عواقب. لم يتم الحديث إلا عن قضية التاجر ميشن Méchens. تكررت نفس الطلبات من قبل الداى، ونفس الردود من السيد دو بوكار والقنصل. غضب الداى من مستشار القنصل المسى ناطوار Natoire، زاعماً أنه شهد ضمان القنصل السابق للتاجر، ووعده بإعادة ممتلكاته عند وصول القنصل الجديد، وهو ما نفاه ناطوار بحضورنا، معترفاً فقط بأنه وعد بالكتابة إلى فرنسا بشأن هذا الأمر. أمر الداى باعتقال ناطوار وميشن، اللذين تخلى عنهما القنصل بالفعل. وتم القبض عليهما أمامنا وأخذاهما بعيداً. احتج السيد دو بوكار والقنصل على أن هذا العنف ضد مستشار القنصل يشكل انتهاكاً للاتفاقية، وأنه يكفي لإفساد التفاهم الجيد بين إمبراطور فرنسا وجمهورية الجزائر. هدد الداى في البداية بضرب حبيبته المقرب الذي استدعى ناطوار كشاهد على ادعائه، لكنه هدأ بعد ذلك وأخبرنا عبر المترجم أنه غضب لأنهم ظلوا يخدعونه بوعده إرجاع أمواله، ولكن نظراً لاعتبارنا، فقد وافق على إطلاق سراح المستشار. وعاد بعد قليل، وكذلك التاجر الفرنسي، ولكن عند إطلاق سراحه، أكد لنا أنه إذا لم يحصل على حقه خلال فترة زمنية معينة، فسوف يضربه بالعصا حتى يُقتل. لقد قلنا له إنه لا يمكن للقنصل أن ينصف نفسه دون انتهاك الاتفاقية، ولكن إذا كان لديه أسباب وجيهة للشكوى، فإن إمبراطور فرنسا سيحقق معه. أكدنا له مرة أخرى على الوعد بكتابة رسالة إلى البلاط، والاستفسار من الوزير عن حقيقة هذه القضية التي لم تكن معروفة. وأكدنا له أنه إذا وعد الوزير بإعادة ممتلكاته، فإنه سيفي بوعده، وأن أولئك الذين أخبروه بذلك قد ضللوه. وأن وزير إمبراطور فرنسا (الكونت دو موروبا) لم يكن يعلم أن المبلغ المذكور مستحق لميشن، الذي كان محتالاً، وأنه لا يمكننا ضمان النتيجة، ولكننا سنكتب وسنبذل كل الجهود الممكنة لمساعدته على الحصول على تعويض، وأننا نأمل أن يعترف

¹ La Condamine: op, cit, p362.

إمبراطور فرنسا، الذي لا ينقلب على أصدقائه، بالخدمات الجيدة التي قدمها في هذه المناسبة وفي المستقبل لمواطنيه. أجاب الداى أنه سينتظر سنتين أو ثلاث سنوات، وسيقرر بعد ذلك الإجراءات التي سيتخذها إذا لم يحصل على حقه. وأرسل لاستدعاء الخمسة عشر عبداً الفرنسيين على يد المستشار نفسه الذي اعتقله قبل قليل¹.

9- لقاء لاكوندامين بالرحالة الإنجليزي طوماس شو:

أثناء إقامة لاكوندامين في مدينة الجزائر التقى بالعالم والرحالة الإنجليزي طوماس شو حيث يقول أنه زاره في منزل القنصل الفرنسي الذي كان يقيم فيه ويذكر بهذا الصدد: "بعد مقابلة الداى التي استمرت ساعة ونصف، عدنا إلى منزل القنصل في الساعة السادسة والنصف صباحاً بعد أخذنا الإذن منه. أجد الأيام تمر هنا بسرعة كبيرة. استغرقني عملي في المرصد جزءاً كبيراً من اليوم، وتفاجأت بزيارة عالم الفيزياء الإنجليزي السيد شو² الذي قام برحلات إلى المشرق وساحل البربر، وجمع مجموعة كبيرة من النباتات النادرة. أظهر لي أيضاً العديد من الأشياء الغريبة من التاريخ الطبيعي، مثل الأصداف والنباتات البحرية. سيقوم قريباً بنشر مجموعة ملاحظاته باللغة الإنجليزية. وكان لديه أيضاً عدد كبير من العملات المصرية واليونانية. انتقلت معه من مرصدي على الأسطح باستخدام السلم، حيث أن هذه الأسطح ليست على نفس المستوى. كان منزل التاجر الإنجليزي الذي يسكن فيه ومقر القنصل الفرنسي متجاوران. هذه هي الطريقة التي يزور بها الجيران بعضهم البعض في هذا البلد³."

¹ La Condamine: op, cit, p360.

² نشر الدكتور طوماس شو، قسيس قنصلية إنجلترا، كتاباً هاماً في أكسفورد عام 1738 بعنوان "رحلات وملاحظات تتعلق بأجزاء مختلفة من باربارية والشام، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى الفرنسية لاحقاً في لاهاي عام 1743 .

وقمنا نحن بدورنا بترجمة هذا العمل القيم إلى اللغة العربية تحت عنوان: رحلة إلى إيالة الجزائر، ترجمة وتقديم الدكتور لخضر بوطبة، دار الباحث للنشر والتوزيع، برج بوعرييج، الجزائر، 2022.

³ لقد أشار الراهب الإسباني هايدو إلى هذه الملاحظة في قوله: "والبيوت متقاربة للغاية، والشوارع شديدة الضيق لدرجة يمكن للمرء أن يتجول في المدينة بأكملها تقريباً بالمرور عبر الأسطح من منزل إلى آخر، علاوة

9-وصف الاحتفال بعيد الفطر:

يحتفل المسلمون في الجزائر بجميع فئاتهم (أتراك وجزائريين وأندلسيين) على غرار باقي المسلمين بيوم عيد الفطر، وتتخلل هذا اليوم الكثير من المظاهر الاحتفالية أوردتها العديد من الرحالين والملاحظين الأوروبيين الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني ولفتت انتباههم،¹ من بينهم الرحالة لاكوندامين الذي لم يسعه تفويت فرصة الفرجة فسجلها في

على ذلك إنها الوسيلة التي تستخدمها العديد من النساء في البلاد لزيارة بعضهن البعض. ولكن هذه السهولة الكبيرة في الاتصال عبر الأسطح تتسبب في السرقة، كما يحدث غالبًا، لأن اللصوص يعرفون جيدًا أيضًا كيف يسلكون هذا المسار، إذا لم يتوخ السكان الحذر. "أنظر، هايدو: المصدر نفسه، ص 37-38.

¹ نأخذ على سبيل المثال الراهب الإسباني هايدو الذي كان متواجدا في مدينة الجزائر في الفترة الممتدة من سنة 1578 إلى 1581، حيث قدم لنا وصف للطقوس الاحتفالية المرافقة لهذا اليوم حيث يقول: "ثم يأتي العيد بعد اليوم الأخير من هذا الشهر والذي يسمونه العيد الصغير، وفي صباح هذا اليوم، يخرج المسلمون جميعًا عبر بوابة باب الواد، ويلتقون في حقل مغلق، يقف القاضي أو المرابط الكبير أمامهم والباشا على جانبه. وبعد أن يصلي الجميع معًا، يقوم المرابطون يحثهم في بضع خطابات، على شكرهم الله ويحافظون على شريعته، ويعددهم ببركات عظيمة في هذا العالم وبعد ذلك يعود الجميع إلى منازلهم." ويقول في موضع آخر في ذات السياق: "بعد الاستمتاع بالمآدب خلال الأيام الثمانية التي تلي هذا العيد (أو على الأقل الأيام الثلاثة)، يركب الرجال والشبان خيولهم، وهم يرتدون أعلى ما لديهم من الملابس، ويخرجون خارج باب الواد على الشاطئ، ويلعبون بالمبارزة وتمرير التميريات وهم مثنى مثنى باستخدام القصب..." لمزيد من المعلومات أنظر، فراي ديشو دو هايدو: طبوغرافيا وتاريخ الجزائر العام، ترجمة وتقديم الدكتور لخضر بوطبة، دار الباحث للنشر والتوزيع، برج بوعريش، الجزائر، 2022، ص 125 ومايليها.

والراهب الفرنسي الأب بيار دان الذي زار الجزائر سنة 1636 وقدم لنا وصفا مختصرا عن الاحتفالات بهذا العيد حيث يقول: "وبعد شهر من الصيام يحتفلون بالعيد الذي يسمونه بيرم¹. ويستمر هذا الاحتفال ثلاثة أيام، خلالها يوزعون الصدقات على الفقراء من العديد من الأغنام التي يضحون بها، ويفرحون ويبتهجون، ويذهبون إلى مساجدهم بمشهد عظيم من التقوى والغيرة. ويتصالحون مع بعضهم البعض عندما يكونون في خلافات." أنظر، بيار دان: تاريخ باربارية وقراصنتها. ترجمة وتقديم الدكتور لخضر بوطبة، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2024، ص 166.

قوله: "كان يوم الجمعة 15 جوان هو يوم عيد عند الأتراك، ويسمونه البيرم¹، وهذه المناسبة تترافق مع العديد من العادات والشعائر الدينية. جميع قناصل الدول الأجنبية يزورون الداى في هذا اليوم لتقديم التهاني، وقد يكون الحشد كبيرًا لدرجة الاختناق. في العام الماضي، ديس على طفل حتى الموت ولم يكن من الممكن إنقاذه. تم إبلاغ القنصل في الساعة السابعة في فترة كان فيها الحشد أقل، وذلك بعد عرض المصارعة الذي أُقيم بحضور الداى في نفس الساحة التي عقدنا فيها أول اجتماع، والاجتماع الذي عقدناه أمس. كان الداى يجلس في نفس الزاوية وبنفس الوضع، ولكن بملابس أنيقة أكثر من المعتاد، وكان يرتدي قفطانًا، وهو نوع من الثياب يهدها الحاكم الكبير² لمن يظهرون أمامه. القماش خفيف جدًا على الرغم من وجود بعض التطريز الذهبي، وإن كان قليلًا. كان الداى محاطًا بديوانه، وهم يجلسون على منصة حول الرواق الذي تحدثتُ عنه. كان مستشاروه وضباطه يرتدون شواشي غريبة الشكل، مختلفة تمامًا عن بعضها البعض، مثل العمائم الكبيرة والصغيرة، والريش على شكل مروحة، والشواشي المزينة بشريط جلدي عريض يمتد من الرأس إلى أسفل الظهر، مع قالب نحاسي على شكل جعبة طوله حوالي قدم، مثبت على القبعة من الأمام، وقبعات نحاسية صفراء عالية تشبه قطعة النرد الكبيرة، وقبعات بألوان وأشكال مختلفة، بالإضافة إلى الرؤوس المكشوفة. عبرنا جميعًا حاملي هذه الشواشي للوصول إلى الداى، وقدم القنصل التهاني له باسم الدولة، وعَرَضْنَا عليه. اتبعتُ القنصل والسيد دارسي M. Darcy والتجار الفرنسيون، وعددهم سبعة أو ثمانية، وقد مد يده لكل منا. ضغط القنصل على يده، وقمت أنا والسيد دارسي بنفس الشيء، وقبلها التجار الذين تبعونا. أخبرني أحد التجار أن جميع أعضاء الديوان والآخرين فعلوا الشيء نفسه. وفي الوقت نفسه،

¹ البيرم في اللغة التركية يعني العيد.

² يقصد بالحاكم الكبير السلطان العثماني الذي كان يرسل من اسطنبول قفطان التولية للداى الجديد بمناسبة توليه الحكم. ويرجع هذا التقليد إلى السلطان سليم الأول الذي أرسل القفطان إلى خير الدين بربروس مع الفرمان والسيف المطرز. أنظر، أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792)، ش و ن ت، الجزائر، 1976، ص 26.

شاهدنا من معرض في الطابق الأول مقابل الداى، وعند مدخل القصر مسيرة الصبايحية الذين قَدِموا للسلام على الداى. قادهم قائد الفرسان، الذي عاد راكباً حصانه بعد مغادرته الفناء. كانت بقية القوات سيراً على الأقدام. قَبَّلَ كل حاملي الشواشي الكبيرة والصغيرة يد الداى على التوالي، ثم عاد كل منهم إلى مكانه مسرعاً، ويده ممدودتان على صدره، ورأسه منخفض، وشريط جلدي يضرب خصره.¹

"بعد أن انتهت كل الأمور، بدأت مجموعة من الأبواق الحادة ونوع من الأبواق الكبيرة والطبول الكبيرة التي تحاكي صوت الطبول لدينا، موسيقى غريبة، وكانت هناك مقطوعتان موسيقيتان فقط مؤلفتان من ثلاثة أجزاء، ولا تخرج عن النغمة الخامسة والثالثة الكبرى، وتكرران باستمرار".

"سكتت الآلات للحظة، ودخل رجل تركي عجوز إلى الساحة، وبحركات كبيرة وأغنية غريبة، بدأ في ترديد نشيد أو ترنيمة قال لنا المترجم إنها عبارة عن تمنيات مناسبة لمناسبة العيد. انضم إليه جوقة الآلات والطبول، التي تصدر نوعاً من النغمات الباسية بضربة واحدة في كل مقطع".

"وفي وسط العازفين، كانت هناك كومة من الرمل قيل لنا إنها استُخدمت كساحة معركة للمصارعين الذين تنافسوا على الجائزة قبل ذلك. رأينا العديد منهم على السطح، وكانت أجسادهم مغطاة بالزيت. وَعَدُّونا بأنهم سيقدمون لنا عرضاً للمصارعة في منزل القنصل." وبعد المقطع الثاني للأبواق، انسحبنا.²

10- وصف عرض المصارعة:

تعتبر المصارعة التركية من أشهر الألعاب التي كان يمارسها الأتراك، نعتزم غداً مشاهدة عرض مصارعة لدى الداى، على غرار العروض القديمة. فقد أنهموا تدريباتهم عندما توجهنا لتقديم التحية له. وقد حضروا صباح اليوم إلى ساحة القنصل وتصارعوا على رخامة بدلاً من الرمل، ولم يفعلوا سوى المزاح وتبادل اللكمات الخفيفة، ولم يسقط أي منهم. ثم

¹ La Condamine: op, cit, p367.

² La Condamine: op, cit, p368.

سكبت المياه على الرخامة، وتصارعوا زحفاً وهم مستلقون. وبعد انتهاء مباراتهم، أكلوا حتى التخمّة، وهو ما فعلوه من قبل، ثم ذهبوا ليكرروا ذلك لدى قناصل إنجلترا وهولندا والسويد، حيث أكلوا وشربوا بكثرة كما لو كانوا صائمين، وبالإضافة إلى ذلك يُمنحون امرأة. وهي عادة راسخة يستمتعون بها ولا يريدون التخلي عنها. وقد تم إنقاذ العبدین على متن سفننا، ولكننا لم نعلن عن ذلك حتى لا نغضب الأتراك.¹

وقد تحدث القنصل الفرنسي شوفاليه دارفيو في مذكراته عن لعبة المصارعة هذه التي كانت تُمارس بمناسبة عيد الفطر حيث قال: "في اليوم الثامن والعشرين احتفل الأتراك بعيد الفطر. وذهب الداي بعد الصلاة إلى القصبة لتلقي تحيات رعاياه. لم يكن يريد أن يكون هناك أي مسيحي، ولا حتى القناصل، على الرغم من أن هذه هي العادة القديمة، لكنه أمر عائلة الترجمان بإيصالهم إلى الديوان الذي يسمونه بيت الملك."

ثم يواصل القول: "كنت أول من ذهب إلى هناك برفقة رجالي وجميع الفرنسيين. كان الباشا وبابا حسن قد تلقيا تحيات الميليشيا، ولكن قبل أن يكون هناك جمهور، كان من الضروري الانتظار حتى ينتهي مجموعة من المصارعين من تدريباتهم. كان هناك جزء من الفناء الكبير مغطى بقماش أشرعة السفن، وقد تم تفريشه بالرمل لمنع المصارعين من إيذاء أنفسهم عندما يُسقطون بعضهم البعض على الأرض. كانوا يلبسون فقط ملابس داخلية قصيرة إلى حد ما. وباقي الجسد عارياً ومدهون بزيت الزيتون من الرأس إلى أخمص القدمين، بحيث عندما يريد المتصارعون إمساك بعضهم البعض تنزلق أيديهم على الجلد الدهني، لكنهم يتركون خدوشاً هناك، مما يدل على مرور وقت طويل منذ أن قصوا أظافرهم. ولا يعد أحدهم منتصراً إذا أسقط خصمه على الأرض، بل ينبغي عليه إذا سقط على بطنه أن يُقلِّبه على ظهره باستعمال القوة أو المهارة، وهذا لا يتم بدون صعوبة، وبدون قتال طويل. وفي النهاية يستلم الفائز الجائزة من يد بابا حسن ويغمره بالتمنيات والتبريكات."²

¹ La Condamine: op, cit, p367.

² شوفاليه دارفيو: المصدر نفسه، ص ص 87-88.

11-وصف داي الجزائر:

"الجزائر هي نوع من الجمهورية، ولكن الداى، الذي كان في الأصل دوغًا، استحوذ تدريجيًا على كل السلطة. والحاكم الحالي يتمتع بسلطة مطلقة أكثر من أي من أسلافه، ولكنه يحافظ على سلطته من خلال القمع الشديد. وللقضاء على أي مؤامرة قد تُهدد سلطته، وغالبًا ما يضحي بأصدقائه المقربين، أو بالأحرى بأكابر البلاد الذين كان على علاقة وثيقة بهم. قبل وصولنا بشهر أو شهرين، أمر بإعدام ثلاثة منهم كانوا يتمتعون بثقته الكاملة، أو على الأقل كانوا يبدؤون كذلك، لأنه من حماقة أن يثق بأحد. يعيش الداى في حالة من الشك الدائم في كل من حوله، ويشبه في ذلك بيغماليون Pigmalion في قصة تيليماكوس Télémaque، مع اختلاف أن أي شخص آخر في مكان الداى سيكون مضطراً إلى أن يكون متشككاً مثله. إنه يستحق كل ما يحدث له، ولم يسع للحصول على هذه السلطة، بل قاومها في البداية، وأنا لا أشك في ذلك. لقد كان قائداً للفروسية¹ وكان يحظى بتقدير كبير."²

"بصعوده إلى السلطة المطلقة، فقد حرّيته وأصبح أكثر عبودية من أي من خدمه³. فهو لا يجرؤ على الخروج من قصره، الذي يسمى دار الملك، والذي كان في عهد الملوك القدماء مقر الإقامة ومكاناً للعدالة في آن واحد. لدى الداى قصر آخر خاص به يسكن فيه

¹ كان يشغل منصب آغا الصبايحية حسبما ذكر عبد الرحمان الجيلالي، أنظر الجيلالي: المرجع نفسه، ص225، أنظر كذلك، جون، ب، وولف: الجزائر وأوروبا، ترجمة وتعليق، أبو القاسم سعد الله، الجزائر، 1986، ص386.

² La Condamine: op, cit, p372.

³ يذكر المؤرخ الأمريكي جون وولف بهذا الصدد، أن الداى عبدي باشا هو أول من جمع بين لقب الداى والباشا بعد أن رفض السماح بنزول الباشا الذي أرسله السلطان إلى الجزائر، ولم يجد السلطان سوى الموافقة على هذا العمل الذي قام به هذا الداى، وأشار إلى أن الداى عبدي باشا على الرغم من إمساكه الحكم بقوة إلا أنه كان دائماً سجيناً في قصره ومهدداً بالاعتقال في أية لحظة، وكان يشك في الجميع ... لمزيد من التفاصيل أنظر، جون وولف: المرجع السابق، ص 187 ومايلها.

زوجاته وأولاده، لكنه لا يجرؤ على الذهاب إليه خوفاً من أن يظن الناس أنه يأخذ خزينته إلى هناك. ومنذ توليه الحكم منذ ثماني سنوات، يقال إنه خرج أربع أو خمس مرات فقط، مرتين أو ثلاث مرات لزيارة زوجاته، ومرتين لزيارة البحرية، ولكن دون أي إعلان مسبق، وعاد بطريق آخر لتجنب مصير سلفه الذي قتل بالرصاص بالقرب من باب المدينة عند عودته من الميناء¹. يعيش في خوف دائم من أي تمرد، ويضطر غالباً إلى القيام بأشياء ضد إرادته لتلبية مطالب ديوانه وجيشه. يعبر عن ذلك بوضوح، وفي إحدى المقابلات الخاصة، أخبرنا عن مقتل سبعة دايات في يوم واحد²، وقال إنه ليس سيد نفسه، ربما كان يتظاهر بذلك ليرفض بعض المطالب. ولذلك كان الناس يقولون إنه ديكتاتور، وهو ما كان يرضي غروره. في المقابلة الأولى، تم طرح سؤال حول كيفية استقباله للسيد دو بوكار، وما إذا كان سيخلع القبعة أم لا³.

"أصر الداى على هذا البند، وقال للقنصل إن ذلك أمر مستحيل، وإنه سيؤدي إلى تمرد جنوده، وأنه لو كان في حملة عسكرية أو في مكان يسمح له بتجنب هذا الطقس، لكان قد استقبله السيد دو بوكار بحرارة. لم يتم الإصرار على هذا البند، مما أدى إلى تأخير

¹ يقصد الداى محمد باشا الذي قتل عند عودته من خرجته لتفقد أحوال البحرية في 18 ماي 1724 حسماً أورد لوجي دوطاسي، وكان الداى الذي سبقه ابراهيم باشا الملقب بالمجنون (دالي براهيم)، قد تم اغتياله كذلك، لمزيد من التفاصيل المثيرة حول قصة اغتيال هذا الداى أنظر، لوجيد وطاسي المغرم بالكتابة في مثل هذه القصص، في المصدر السابق، ص ص 168-170.

² حول قضية اغتيال الدايات السبعة في يوم واحد التي ذكرها لوجي دوطاسي في كتابه السابق الذكر، علق المؤرخ الفرنسي هنري دوغرامون على ذلك في قوله: "يتحمل لوجي دو طاسي (المصدر المذكور سابقاً) المسؤولية عن هذه الحكاية، يقول: (في الصفحة 221). ذات يوم رأينا ستة مذابح دايات وسبعة منتخبين. لكنه لا يعطي أسماء أو تواريخ، ولا شيء يمكننا معرفته يُبرر هذا الادعاء. إذا كان المؤلف، بدلاً من نشر أعماله في عام 1725، قد كتبها بعد ثلاثين عاماً، فقد يعتقد المرء أن المذابح هي التي دمت الجينية في عام 1754، أثناء اغتصاب أوزون علي السلطة. "أنظر، هنري دالما دوغرامون: تاريخ الجزائر تحت الحكم التركي، ترجمة وتقديم الدكتور لخضر بوطبة، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2024، ص 151.

³ La Condamine: op, cit, p373.

المقابلة بيوم واحد. لم يرغب السيد دو بوكار في أن يعطل ذلك المفاوضات. فقد تحدث وهو جالس على كرسي في المقابلة الخاصة التي أُجريت في الرواق بالطابق الثاني، ووقف مرتين عندما تحدث إلى الداوي تحت الشرفة المكشوفة في نهاية الفناء، وهي المكان الذي يعقد فيه الداوي مجلسه ويقضي فيه العدالة. يذكر ريكو في تاريخه للإمبراطورية العثمانية أنه من الوقاحة أن يظهر المرء أمام الأتراك وهو مكشوف الرأس. وقد تغير هذا البروتوكول في الجزائر بسبب تهور بعض العبيد الفرنسيين الذين أخبروا الداوي، أثناء أسرهم أن عدم خلع القبعة في فرنسا يعتبر وقاحة كبيرة. ومنذ ذلك الحين أصبح الأتراك أكثر صرامة، ويطالبون بخلع القبعة حتى عند المرور أمام باب دار الداوي. وقد تعرض السيد دو فلورنساك لتحذير شديد من قبل أحد الحراس بضربه بعضا على ذراعه لأنه دخل الفناء وهو يرتدي قبعته. ومرة واحدة، عندما كنت أمر أمام باب الداوي مع تاجر فرنسي، لم أخلع قبعتي مثلما فعل هو، متظاهراً بجهلي بالعرف. وسمعت تركياً أو مغاربياً يقول بالإسبانية: "هذا الرجل لم يخلع قبعته".¹

12- اللغة الفرانكا:

نظراً لأن مدينة الجزائر كانت تعج بالوافدين الأوروبيين من تجار وعبيد ودبلوماسيين ووكلاء ورهبان وقناصل، فقد استحدث الجزائريون لغة للتواصل بسهولة مع هذه الأجناس أطلقوا عليها اسم اللغة الفرنكا *langua franca*، وهذا ما لاحظته الرحالون والملاحظون. ويعد الإسباني هايدو أول من أشار إلى هذه اللغة.² وتحدث عنها الأسير الفلامانكي داراندا في قوله: "اللغة الفرنكة (وهي اللغة المشتركة بين العبيد والأتراك، وكذلك بين العبيد من دولة إلى أخرى. إنها لغة مختلطة من الإيطالية والإسبانية والفرنسية والبرتغالية. والآن سيكون من المستحيل قيادة عبيدهم: ففي حمّامنا³، من بين 550 عبداً، يتمّ التحدث بـ 22 لغة)".⁴

¹ La Condamine: op, cit, p374.

² أنظر هايدو: المصدر السابق، ص 100-101. أنظر كذلك الأب دان: المصدر السابق، ص 122.

³ السجون التي كانت تأوي العبيد خلال العهد العثماني، كانت تسمى بان Bagnes وبانيول Bagnoles. لمزيد من المعلومات أنظر:

أما مؤلفنا لاكوندامين فقد تطرق للحديث عن هذه اللغة المهمة للتواصل بين مختلف الأجناس الذين كانت تعج بهم مدينة الجزائر خلال العهد العثماني في قوله: "اللغة المحلية هي الموريسكية. يتحدث الأتراك التركية فيما بينهم، ولكن اللغة المستخدمة للتواصل مع الأوروبيين تسمى الفرانكية. ويقال إنها تستخدم في جميع أنحاء المشرق وفي جميع موانئ البحر الأبيض المتوسط، مع اختلاف بسيط، حيث يمزج اللهجة المستخدمة في طرابلس والمناطق الشرقية بين البروفنسالية واليونانية العامية واللاتينية والإيطالية الفاسدة، بينما اللهجة المستخدمة في الجزائر، والتي تسمى أيضاً الموريسكية الصغيرة، أقرب إلى الإسبانية، والتي احتفظ بها المغاربة بعد إقامتهم في إسبانيا. ويقال إن هناك العديد من المناطق في باربارية حيث لا تزال الإسبانية سائدة، وأن معظم المغاربة يفهمونها. نادراً ما تستخدم الأفعال المصدر في هذه اللهجة التي يمكن فهمها بسهولة إذا كان المرء معتاداً على اللهجة، وخاصة إذا كان يعرف اللاتينية. إنها تشبه اللهجة المستخدمة في المسرحيات التركية ومسرحيات العصر."¹

13-الجزائر مدينة مكتظة:

لقد أشار الكثير من الكتاب الأوروبيين الذين أسعفهم الحظ في القيام بزيارة إيالة الجزائر خلال الفترة العثمانية، إلى أن مدينة الجزائر كانت مكتظة بالسكان²، كما نوهوا بنشاطها وحيويتها، وذلك بفضل نشاط القرصنة الذي كان مزدهراً. وقد أورد الأسير البرتغالي جواو ماسكاريناس الذي كان متواجداً كعبد في مدينة الجزائر بين سنتي 1621 و1627 إلى أن مدينة الجزائر كانت مكتظة بالسكان، وقدر عددهم بحوالي 100 ألف نسمة، غير أن المدينة كانت تتعرض كغيرها من مدن البحر الأبيض المتوسط المكتظة بالسكان إلى الطاعون الذي

Gabriel Audisio :Recherches sur l'origines et la signification du mot « Bagne », RA, n°101, 1957, pp363-380.

⁴ دارندا: المصدر السابق، ص126.

¹ La Condamine: op, cit, p375.

² أنظر شوفاليه دارفيو: المصدر نفسه، ص177.

كان يتسبب في انخفاض عدد السكان في بعض الأحيان.¹ وقدّم لنا الأب دان الذي زار هذه المدينة وصفاً دقيقاً لمنازلها وساحاتها ومبانيها وحصونها وبواباتها وثكناتها وسورها، وقد أشاد بجمالها عندما ينظر إليها الناظر من جهة البحر، كما أعجب بحداثتها وبساتينها وخصوبة الأراضي المحيطة بها.²

وأما لاكوندامين فقد وصف هذه المدينة في قوله: "الجزائر مدينة مكتظة بالسكان، وتتعج شوارعها بالناس، على الرغم من أن معظم السكان يذهبون إلى الريف في هذا الموسم".³ بالإضافة إلى ذلك، فإن المعسكرات مُغادرة، أي أن الجنود خارج المدينة. كل عام في الربيع، يشكل الداي ثلاثة معسكرات من قواته ويتجهون إلى الداخل، أحدهم يتجه شرقاً والآخر غرباً والثالث جنوباً. يذهبون أولاً إلى القرى لجمع الضرائب⁴ من المغاربة. ثم ينتشرون في الجبال والمناطق غير المأهولة حتى يلتقوا بقبائل المغاربة ويجبروهم على دفع الضرائب. ويقال

¹ لمزيد من التفاصيل أنظر، مذكرات الأسير البرتغالي جواو ماسكاريناس في مدينة الجزائر، ترجمة وتقديم لخضر بوطبة، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2022، ص 210.

² لمزيد من التفاصيل راجع، الأب بيار دان: المرجع السابق، ص ص 97-102.

³ يقصد موسم الصيف حيث كان السكان ينتقلون إلى منازلهم الكائنة في الريف المحيط بمدينة الجزائر، حيث توجد حدائقهم وبساتينهم. وكانت هذه البساتين والحدائق التابعة للشخصيات الميسورة يسهر العبيد على خدمتها كما أشار إلى ذلك العديد من الأسرى المسيحيين في مذكراتهم، ومنهم الأسير الفلاماني دارندا. أنظر دارندا: المصدر السابق، ص 37.

⁴ تطرق الكثير من الكتاب الأوروبيين إلى مسألة انطلاق المعسكرات الثلاث من مدينة الجزائر في اتجاه الباليكات الثلاثة بهدف استخلاص الضريبة، أنظر على سبيل المثال هايدو: المصدر السابق، ص 178، وكذلك فراي ديفو دو هايدو: تاريخ ملوك الجزائر، ترجمة وتقديم الدكتور لخضر بوطبة، دار الباحث للنشر والتوزيع، برج بوعريريج، الجزائر، 2022، ص 81، وأنظر أيضاً، الأب دان: المصدر السابق، ص 93، ولوجي دوطاسي: المصدر السابق، ص 197.

أيضاً إن القوات التي تغادر الجزائر في هذا الموسم تقوم بتجديد الحاميات¹ التركية في القلاع والحصون على الساحل والداخل².

"وبالإضافة إلى المغاربة وهم سكان البلاد الأصليون والأتراك الذين غزوا البلاد،³ هناك أيضاً ما يزيد عن عشرة آلاف يهودي يعيشون في الجزائر، ومعظمهم يعيشون في فقر مدقع. إنهم يعيشون في هذا الوضع الصعب لأنهم يتعرضون للاضطهاد. وكما ذكرت سابقاً، يعمل الكثير منهم في صناعة المجوهرات، بينما يعمل البعض الآخر في مجال الصرافة والمصارفة، ويتلاعبون بالعملات المعدنية رغم خطر التعرض للعقاب."⁴

14-الخاتمة:

من خلال ما سبق عرضه يمكننا أن نخلص إلى أن رحلة لاكوندامين إلى الجزائر في عام 1731 شكلت محاولة علمية لاستكشاف المنطقة ورصد ظاهرة فلكية، إلا أنها قدمت أيضاً نظرة قيمة على الحياة في الجزائر تحت الحكم العثماني. ورغم قصر مدة إقامته، تمكن المؤلف من جمع ملاحظات دقيقة حول العادات والتقاليد، والعلاقات السياسية، والبنية العمرانية للمدينة. ومع ذلك، فإن نظرة لاكوندامين للعثمانيين، شأنها شأن العديد من المستشرقين الفرنسيين في عصره، كانت متأثرة بالنظرة النمطية التي روج لها رجال الدين في

¹ لقد وضعت السلطة العثمانية في الجزائر حاميات من الجنود في المدن الساحلية كعناية والقل وجيجل وتنس وشرشال وبجاية، وبعض المدن الداخلية كبسكرة وباتنة ومليانة وغيرها، لتوفير الأمن فيها وحراستها وتمثيل السلطة فيها، وكانت هذه الحاميات تسمى النوبة، ويتم استبدالها مرة كل سنة. لمزيد من المعلومات أنظر، جون أندري بيسونال: رحلة إلى إيالة الجزائر، ترجمة وتقديم لخضر بوطبة، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2022، ص184.

² الحامية تسمى النوبة لأن الجنود فيها يُستبدلون كل عام.

³ نلاحظ المؤلف هنا يعتبر الوجود العثماني في الجزائر غزواً على غرار الكثير من الكتاب الفرنسيين، الذين لا يؤمنون بفكرة استنجد الجزائريين بالعثمانيين، أمثال الأب دان le Père Dan وغيره.

⁴ La Condamine: op, cit, p374.

أوروبا من أجل ترسيخ الحقد والكراهية وروح العداء لدى شعوب القارة الأوروبية كتمهيد للمد الاستعماري، حيث صورهم كغزاة وليسوا فاتحين. كما ركز بشكل أكبر على الجوانب الفلكية والسياسية، مما قلل من عمق تحليله للحياة اليومية للسكان. وعلى الرغم من هذه النقاط، فإن ملاحظات لاكوندامين تعتبر مصدراً هاماً لفهم الجزائر في القرن الثامن عشر، وتساهم في إثراء المعرفة التاريخية عن المنطقة.

قائمة المصادر والمراجع العربية:

أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (1492-1792)، ش و ن ت، الجزائر، 1976.

بيار دان: تاريخ باربارية وقراصنتها. ترجمة وتقديم الدكتور لخضر بوطبة، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2024.

جون أندري بيسونال: رحلة إلى إيالة الجزائر، ترجمة وتقديم لخضر بوطبة، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2022.

جون، ب، وولف: الجزائر وأوروبا، ترجمة وتعليق، أبو القاسم سعد الله، الجزائر، 1986. رحلة إلى إيالة الجزائر، ترجمة وتقديم الدكتور لخضر بوطبة، دار الباحث للنشر والتوزيع، برج بوعريش، الجزائر، 2022.

عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، ط7، د م ج، الجزائر، 1994.

فراي ديشو دو هايدو: تاريخ ملوك الجزائر، ترجمة وتقديم الدكتور لخضر بوطبة، دار الباحث للنشر والتوزيع، برج بوعريش، الجزائر، 2022.

فراي ديشو دو هايدو: طبوغرافيا وتاريخ الجزائر العام، ترجمة وتقديم الدكتور لخضر بوطبة، دار الباحث للنشر والتوزيع، برج بوعريش، الجزائر، 2022.

فراي ديشو دو هايدو: طبوغرافيا وتاريخ الجزائر العام، ترجمة وتقديم الدكتور لخضر بوطبة، دار الباحث للنشر والتوزيع، برج بوعريش، الجزائر، 2022.

لوجي دوطاسي: تاريخ مملكة الجزائر، ترجمة وتقديم الدكتور لخضر بوطبة، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2024.

مذكرات الأسير البرتغالي جواو ماسكاريناس في مدينة الجزائر، ترجمة وتقديم لخضر بوطبة، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2022.

مذكرات شوفالي دارفيو، ترجمة وتقديم الدكتور لخضر بوطبة، دار الباحث للنشر والتوزيع، برج بوعريش، الجزائر، 2023.

هنري دالما دوغرامون: تاريخ الجزائر تحت الحكم التركي، ترجمة وتقديم الدكتور لخضر بوطبة، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع ، الجزائر، 2024.

قائمة المصادر والمراجع الأجنبية:

Gabriel Audisio :Recherches sur l'origines et la signification du mot « Bagne », RA, n°101, 1957.

<https://www.mayoclinic.org/ar/diseases-conditions/>

Jean-Baptiste Tollot: Nouveau voyage fait au Levant, 1731-1732.

Alger, Tunis, Tripoly de Barbarie, Alexandrie en Égypte, Paris, 1742.

La Condamine: Le Voyage de La Condamine à Alger (1731), publié par Marcel Émerit, Revue Africaine, n°98, 1954.

Hoefer, Ferdinand : l'Univers pittoresque, , Histoire de tous les peuples, Afrique Etats Tripolitains, 1835.

Revue Tunisiènnne:Tome 5 (1898).